(15)

الابتسامة المرعبة

لم يكد طفلي الصغير المدلّل يكمل عامه الثالث حتى بدأتُ ألحَظ عليه بعض التصرفات الغريبة، كان يترك الألعاب المبعثرة في غرفة الجلوس ويزحف على ركبتيه ليجلس تحت طاولة الطعام، كان يصيبني الرعب حين يبدو لي أن أحدهم يداعبه فيضحك، ويجلس فترات طويلة تحت الطاولة؛ فإذا ما حاولتُ إخراجه لإطعامه أو لوقت النوم كان يرمقني بنظرة تخيفني، ليسَت نظرة طفل في الثالثة، نظرة غريبة تحمل بعض الكراهية، ولا أدري هل كنت أتوهم ذلك أم كانت حقيقة!

في يوم عيد ميلاده السادس كان يبكي تحت الطاولة، سألتُه بجزع عما يبكيه، أجابني بأن صديقه رحَل وتركه وحيدًا، تعجّبتُ يومها؛ فلم يكن لابني أية صداقات، ولمّا سألته رمقني بتلك النظرة المخيفة وهو يقول بصوت بدا لي غريبًا:

– صديقي إلياس الذي كان يلاعبني دومًا.

شعرتُ بقشعريرة تسري في جسدي؛ فقد كان إلياس هو اسم ابني الذي تُوفّي في حريق قبل خمس سنوات من ولادة ابني الأصغر، خوف مبهم لم أعرف له تفسيرًا سيطر على قلبي، انسحبتُ وتركتُه دون أن أنطق بكلمة وقد سيطر عليّ شعور غريب نحوه، شعورٌ بأن الطفل الذي يحتضنني الآن ويضغط بشدة على يدي هو شخص غريب عني.

مرّت الأيام وأحوال ابني تتبدّل بشكل مرعب، أستيقظُ في منتصف الليل لأجده يقف على باب حجرتي ويبتسم ابتسامة غريبة قاسية، أقوم لصلاة الفجر فأجده قد أوصَدَ على نفسه باب الحمام لفترات طويلة، يسمع موسيقى صاخبة، يقلقُ من أن يدخل أحد غرفته، حتى

كان يومًا تشاجَرَ فيه مع والده: فوجدتُه يتمتم بكلمات مبهمة بصوت أجش، ولما تطور الأمر بينهما أشاح بيده في وجه والده فأطاح به من مكانه ليرتطم رأسه بجدار الغرفة وينزف، وتلك الواقعة كانت بداية تحول في حالته.

تظاهر بالندم الشديد لمَا حدث، وطلبَ مني أن أساعده وألّا أتخلّى عنه، فسّر لي الأمر بأن جسده يسكنه شبح اسمه إلياس، ولا يستطيع التخلص منه، يرتاح لسُكنَى جسده ولا يفكر في الرحيل أبدًا، فكرتُ ربما إذا استعان بالقرآن والرُقية وبعض البخور يمكنه طرده من جسده، أو الذهاب الى أحد المتخصصين في إخراج الجان من الجسد، ولكن زوجي رفض بحجة أن ذلك جهل شديد وأقرب إلى الكفر، ورفض ابني؛ لأن هؤلاء المشعوذين يستخدمون وسائل مؤلمة وطرق بشعة لخروج الجان.

كنت أفتقد ابني، ذلك الشخص الذي يحاول التقرب لي ولزوجي هو أبعد ما يكون عن شخصية ابننا، إنه شخص مختلف، نظراته وصوته، حتى طريقته في السير، التفاتَتُه لنا بين الحين والآخر، ابتسامته المرعبة، صارحْتُ زوجي بمشاعري لم يلتَفِت للأمر، بل أصرّ على اصطحاب ابننا لأحد الأطباء المتخصصين في الأمراض النفسية، والذي ما أن أنهى الكشف حتى أخبرنا أن ابننا يعاني من حالة نفسية ومرض يستوجب العلاج، وأن العلاج يتمّ في مصحة خاصة، بعدة جلسات وعلاج دوائي.

رغم انتظام ابني في العلاج إلا أن تغيرًا لم يطرأ على حالته، والمخيف في الأمر أن المصحة شَبّ فيها حريق أكثر من مرة، وشهدَت أكثر من حالة انتحار، حالات هروب غامضة لمرضَى حالتهم مستقرة، بعد عدة شهور أتم ابننا فترة العلاج وأخبرنا الطبيب أن العلاج أتى ثماره، وأنه لن يذكر تلك الخرافات عن الجان وإلياس مرة أخرى.

خرجنا من المصحة واستقلَلْنا سيارتنا نحو منزلنا ونحن نحمد الله على سلامة ابننا، وما أن وصلنا للمنزل حتى دقّ جرس الهاتف المحمول، كان رقم الطبيب، أجاب زوجي الهاتف ليخبره أحدهم أن الطبيب انتحر شنقًا وبطريقة مريبة أثارت الشكوك بأن في الأمر لغزًا غامضًا؛ فقد كان الطبيب قصير القامة ومع ذلك استطاع تثبيت الحبل في سقف الغرفة بمهارة كبيرة! ولولا أن الباب كان مغلقًا من الداخل بالمفتاح ربما كانت تدور الشكوك حول جريمة قتل.

وضع زوجي الهاتف والتقَت عيناه بعيني ابني الذي تبدّلَت نظرته لتلك النظرة المخيفة، ابتسم ابتسامته المرعبة، تركَنَا ليدخل حجرته ويغلق الباب خلفه.